سورة البروج

مكية، وهي ثلاث وعشرون آية مع البسملة

هذه السورة أيضا متسلسلة الموضوع مع السور السابقة. إنها مكية حيث قال المفسرون: لا خلافَ في مكّيّتها. ولكن المستشرقين حاولوا التشكيك في ذلك؛ حيث يعتبرها المستشرق الألماني "نولدكه" مما نـــزل في الفترة الأولى من البعثة النبوية.. أي في السنتين والنصف الأولى، ولكنه مع ذلك يظن أن قوله تعالى ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ قد أُضيف إليها فيما بعد. وليس المراد من قوله هذا أن هذه الآيات قد أضيفت إلى القرآن مِن قبل شخص آخر، بل يعني أن محمدا (ﷺ) نفسه قد أضافها إلى هذه السورة في الفترة المدَنية. وحجّته أن هذه الآيات تختلف أسلوبًا مع الآيات المكية، فهي أطول من الآيات الأخرى، وأشبه بالسور المدَنيّة.

أما القسيس "ويري" فيضيف أمرًا آخر قائلا: لقد ورد في هذه السورة لفظ (المؤمنات) في قول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾، وهذا اللفظ لم يكن شائعًا في السور المكيّة، بل تكرر في السور المدنية فقط. وهكذا فإن "ويري" أيضًا يؤيد المستشرقَ "نولدكه" الذي زعم أن آيات هذه السورة بدءا من الآية ٨ حتى الآية ١١ مَدَنيّة.

وفيما يتعلق بقضية كون السورة مكية أو مدنية، فليست بذات بال بالنسبة لنا نحن المسلمين، فإننا نؤمن أن آيات القرآن كلها قد نـــزلتْ من عند الله تعالى، وهي صالحة للعمل، سواء في مكة نزلت أو في المدينة؛ فكونها مكية أو مدَنية لا يغيّر من الأمر كثيرا بالنسبة لنا. أما منكرو الإسلام فهم يروْن أن آيات القرآن كلها من اختلاق محمد (ﷺ)، فلا ينفعهم أيضًا البحثُ فيما إذا كانت آيةٌ ما مكيةً

أو مدَنيةً. ومع ذلك سأناقش هذا الاعتراض، لأبيّن كيف يتكلم هؤلاء المستشرقون أحيانًا عن الإسلام بأمور سخيفة لا أساس لها.

إن زعم "نولدكه" هذا خلاف العقل في رأيي، لأن طول بعض الآيات قليلاً ليس في حد ذاته دليلاً على نـــزولها في المدينة. نحن المسلمين نؤمن أن القرآن كله تنـــزيل من رب العالمين، بينما يرى "نولدكه" وأصحابه أن القرآن كله من تأليف محمد، وليس مصدره أي جهة أخرى. فلو قلنا إن القرآن كله نـــزل من عند الله، فالقول إنه تعالى كان قادرا على إنـــزال آيات طويلة في المدينة دون مكة حمقٌ وغباء. أما إذا قلنا إن كل القرآن هو من تأليف محمد، فزعم نولدكه وغيرِه أن محمدا لم يكن قادرا على تأليف آيات طويلة في مكة وقادرا عليها في المدينة سخفٌ. إذا كانت الآيات المكية قصيرة -عادةً- لحكمةٍ ما، فلا يعني ذلك أن مؤلِّفها لم يكن قادرًا على إطالتها عند الحاجة. فثبت أن دعواهم هذه باطلة عقلاً كل البطلان.

ثم إن دعواهم باطلة على صعيد الواقع أيضًا، لأن لفظ ﴿المؤمنات﴾ الذي بنى عليه "ويري" اعتراضه زاعمًا أنه لم يرِدْ إلا في السور المدَنية لموجودٌ في السور المكية أيضًا، حيث قال الله على لسان نوح: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا تَبَارًا﴾(نوح:٢٩). فقد ورد في هذه الآية لفظ ﴿المؤمنات﴾، كما أنها طويلة أيضا، ثم ليس هناك مِن خلاف في كون سورة نوح مكيةً. فيقول صاحب "فتح البيان": إنها مكية. وقال الزبير: نـــزلت بمكة. وقال صاحب "روح المعاني": مكية بالاتفاق. حتى إن "نولدكه" – الذي اعتبر بعض آيات سورة البروج مكية بسبب طولها – فهو نفسه يقول عن سورة نوح: إنها مما نـــزل في السنوات الخمس الأولى من البعثة. وأما "ويري" – الذي يعتبر بعض آيات سورة البروج مدَنية لورود لفظ المؤمنات فيها – فهو الآخر يعترف أن سورة نوح قد نـــزلت في السنة السابعة للبعثة النبوية. فثبت بشهادة نولدكه وويري نفسيهما أن لفظ المؤمنات قد ورد في السور المكية أيضا، وأن بعض آيات السور المكية طويلة أيضا. فثبت أن استدلالهم عن كون سورة البروج

مَدَنيّة إنما كان مجرد تخمين مفترًى، وحيث إن المرء ينسى ما قاله على سبيل التخريص والتخمين، فنجد هؤلاء المستشرقين يأتون باستنتاجات متناقضة.

الواقع أن ما يقدّمه المستشرقون الأوروبيون كدليل على طعنهم في القرآن الكريم إنما هو مجرد ظنّ وتخمين، ولكن المثقفين الهنود عندما يسمعون شيئا من أفواه المستشرقين يظنون أنه أكثر قداسة من الوحي الرباني، مع أن التدبر في أقوالهم يكشف أنها ليست أكثر من تخريص وافتراء.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿٢﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

البروج: جمعُ بُرْج، وهو الرُّكْن والحِصْن والقَصْر، وواحدُ بروجِ السماء. ويقال برِجتْ عينُه بَرَجًا: كان بياضُها محدقًا بالسواد كله لا يغيب من سوادها شيء، فهي بَرْجاء، وجمعُها بُرْجٌ، ومنه: رأيتُ بُرْجًا في بُرْج، الأول جمعُ برجاءَ والثاني بمعنى القصر (الأقرب).. أي رأيتُ في قصرٍ نسوةً بياضُ عيونهن محدق بالسواد. وهذا يعني أن البرج يُستعمل مفردًا أيضا، ومعناه الركن والحصن والقصر، ويُستخدم جمعًا مفرده برجاءُ بمعنى النسوة التي عيونها كما وُصف أعلاه.

التفسير: يقول الله تعالى: نقدّم كشهادةٍ السماءَ التي فيها بروج.

ما هي هذه البروج؟ قال المفسرون: هي البروج المعروفة في علم الفَلك والهيئة. يقولون: هناك اثنا عشر برجًا للنجوم، وأسماؤها الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والعذراء والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت. وقال بعضهم إن أجرام النظام الشمسي السبعة تدور في هذه البروج الاثني عشر الخاصة بها، فالحمل والعقرب للمريخ، والثور والميزان للزهرة، والجوزاء والعذراء لعطارد، والسرطان للقمر، والأسد للشمس، والقوس والحوت للمشتري، والجدي والدلو لزُحل.

وروى ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ سئل ما هي البروج؟ فقال ﷺ الكواكب. (روح المعاني)

باختصار، يُطلق البُرج لغةً على ما يقيم فيه الملوك والأمراء من قصر وحصن وغيرهما، ويُطلق في اصطلاح علماء الفَلك على النجوم، أو على مدارات الكواكب. فعلماء الفلك القدماء متفقون على أن عدد البروج اثنا عشر، وعليه فقوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ يعني: أننا نقدم كشهادةٍ السماءَ ذاتَ البروج الاثني عشر التي هي مدار الكواكب.

ثم قال الله تعالى: إننا نقدّم كشهادةٍ اليومَ الموعود. فلو فسّرنا البروج بمعنى اثني عشر مقامًا، فيصبح اليوم الموعود المقام الثالث عشر. وكأن الله تعالى يستشهد بهذه المقامات واليوم الموعود، التي عددها ثلاثة عشر. وعندما نربط هاتين الآيتين بقوله تعالى الوارد في السورة الماضية: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾، تنسجم السورتان في موضوعهما كل الانسجام؛ حيث قال الله في السورة السابقة: نقدّم كشهادةٍ القمرَ حين يدخل في ليلته الثالثة عشرة، بينما قال تعالى هنا: نقدّم كشهادةٍ الاثني عشر برجًا واليومَ الموعود، أي ثلاثة عشر قرنًا، وهكذا ثبتتْ علاقة وطيدة بين هذه السورة مع التي قبلها. فالحق أن الله تعالى قد أعاد هنا نفس الموضوع المذكور في السورة السابقة ولكن بشكل آخر، وجعله دليلا على صدق ما قال هنالك. لقد قال تعالى في السورة السابقة ﴿فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾، والظاهر أن من الصعب جدًّا أن يؤمن الناس بالشيء وهو في بداياته، ولذلك قد قال الله تعالى في بداية هذه السورة إننا نقدم كشهادةٍ تلك المقاماتِ الاثني عشر التي هي مقامات النجوم.. أي نقدم كشهادةٍ المجددين الذين ظهروا بعد النبي ﷺ في الاثني عشر قرنا، لتجديد الدين بحسب مشيئته تعالى. فكأنه تعالى يقول: ما دمنا سنبعث المجددين لإزالة ما سيقع بالمسلمين من اختلافات بسيطة وما سيحلّ بالإسلام من مصاعب عابرة، فكيف يمكن أن تحلّ بالإسلام مصيبة كبيرة ولا نعمل شيئًا لإزالتها؟

إذًا فقوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ قد جاء ردًا على المعارضين الذين قيل فيهم: ﴿فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، حيث قدّم الله تعالى لهم شهادةَ السماء وبروجها

الاثني عشر التي هي مدارات النجوم.. كأنه تعالى يقول: ما دمنا نبعث المجددين مجددًا تلو مجدد لاثني عشر قرنًا لهداية الناس.. فلماذا يئستم في المرة الثالثة عشرة، فظننتم أن الله لن يبعث الآن أحدًا لهداية الناس؟ عندكم شهادة بأن الله تعالى قد أقام عند القرن الأول أناسًا لتجديد دينه، ثم لم يزَلْ يقيمهم قرنًا بعد قرن لمدة اثني عشر قرنًا، وهكذا أثبتَ ١٢ مرة أنه سيظل يقيم لنصرة دينه وتأييده عبادًا له مؤيَّدين ومنصورين من عنده، لينشروا تعاليم المصطفى ﷺ في الدنيا. فالعجيب أنكم قد صدّقتم هؤلاء المجددين الذين لم يكونوا موعودين من عند الله تعالى، ولكنّ الثالث عشر الذي كان موعودًا من الله تعالى قد أنكرتم بعثته! ذلك أن الله قد أخبر عن بعثة هؤلاء الأولين بكلماتٍ غير محددة، حيث قال النبي ﷺ: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها." (أبو داود، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المئة)، ومع ذلك صدّقتموهم، بينما أنكرتم هذا الثالث عشر الذي قد أعطاه الرسول ﷺ في نبوءاته اسمًا محدّدًا وذكر أعماله وعلاماته وآيات صدقه وموعده وعصره بكلمات صريحة! وليس هذا فحسب، بل لقد ساءت حالة المسلمين أنهم أخذوا يقولون بعد بعثة المسيح الموعود عليه السلام: لا حاجة لنا لأي مصلح لرقي الإسلام والمسلمين. ومن أجل ذلك يقول الله تعالى هنا: لماذا خطرت هذه الفكرة ببالكم بعد مرور اثني عشر قرنا؟ لقد كنتم تؤمنون لاثني عشر قرنًا أن إحياء الإسلام بحاجة إلى المجددين، وأن ازدهار الإسلام وغلبته بحاجة إلى مبعوث رباني، وعندما جاء القرن الثالث عشر وأرسلنا هذا الموعود أنكرتموه، بل قلتم لا حاجة لنا لأي مصلح! ولذلك يقول الله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾.. أي ماذا حصل لهم؟ فرفضتم الإيمان بموعودنا الذي سبق أن أنبأنا عن أخباره مفصلاً، والذي أوصاكم نبينا بالإيمان به خاصة، وتحدث كثيرًا عن سموّ شأنه وعلوّ درجته، بل قلتم إن من الخطأ الزعم أن رقي الإسلام بحاجة إلى بعثة رجال من عند الله! إننا نلفت أنظاركم إلى اثني عشر برجا لرقي الإسلام، لتفكروا وتروا كيف نصر اللهُ الإسلام في كل موطن وأفشل هجمات الكفر بإقامة عباد ربانيين. ثم لما جاء القرن الثالث عشر أرسلنا عبدنا الموعود الذي ما زلنا نخبر عنه.

مِن قدرة الله تعالى أن مفاهيم هذه الآيات القرآنية قد انكشفت علينا بعد بعثة المسيح الموعود عليه السلام، إلا أن الغريب أنه عليه السلام قد اشتهر في جماعتنا باسم المسيح الموعود.. أي المسيح الذي ظهر في اليوم الموعود. فلو تحدثتَ مع أي أحمدي، عالمًا كان أو جاهلاً مثقفًا كان أو أميًّا تجده يقول: لقد قال المسيح الموعود عليه السلام كذا وكذا، وإن دليل صدق المسيح الموعود عليه السلام كذا وكذا.. والله تعالى سماه مسيحا موعودا. لقد كثرت هذه التسمية بين الأحمديين بحيث غاب اسم المهدي بينهم تقريبًا، مع أن اسم المهدي أيضا قد كثر في الحديث، بينما سماه القرآن الكريم موعودا، لذلك فقد روَّج الله تعالى بعجيب حكمته تسمية المسيح الموعود في الدنيا.

ورد في الحديث عن ابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن عباس، قال رسول الله ﷺ: اليومُ الموعود: يومُ القيامة. وشاهدٌ: يومُ الجمعة، ومشهودٌ: يومُ عرفة، وشاهدٌ: محمدٌ ﷺ، ومشهودٌ: يومُ القيامة. (فتح القدير، وابن كثير)

نحن لا ننكر صحة هذا الحديث، ولكن الحقيقة أن اليوم الموعود لم يكن يومًا بعينه، إذ كان يوم بدر يوما موعودا بحسب القرآن إذ قد تنبأ عن هذه المعركة سلفًا، وكانت غزوة الأحزاب يوما موعودا أيضا إذ كانت فيه نبوءة عنها، وكان يوم فتح مكة يوما موعودا إذ كانت في القرآن نبوءة من الله عن هذا الفتح (سورة القمر:٤٦، وسورة الأحزاب:١٢، وسورة الفتح:٢). فلا شك أن اليوم الموعود كان أيامًا كثيرة، ولكنا نقول إن اليوم الموعود الذي أُريدَ هنا هو ذلك اليوم الآتي بعد الحادث المذكور في قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾؛ ولذلك فلا يعني اليوم الموعود يومَ القيامة أو غيره، وإنما يراد به يوم ظهور الشخص الموعود الذي سيظهر في القرن الثالث عشر بعد ظهور البروج الاثني عشر. ذلك أن اللفظ متعدد المعاني لا يراد به معنى واحد في كل موطن، بل إنه يفيد مفاهيم مختلفة بحسب المحل والسياق. فلا شك أن معركة بدر كانت يومًا موعودا، وكذلك يوم الأحزاب كان يوما موعودا، وفتح مكة كان يوما موعودا، نحن لا ننكر ذلك، ولكنا نقول إن اليوم الموعود المذكور بعد قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ لا يمكن أن يكون إلا يوم بعثة المسيح الموعود. وهو نفس الموعود الذي أُخبر عنه في قوله تعالى

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ أيضا. أما إذا لم نفسر اليوم الموعود هنا بمعنى يوم بعثة المسيح الموعود، فمن ذا الذي جعل بين هذه الآيات والتي قبلها هذا الرابط القوي بحيث ينطبق على المسيح الموعود كل ما يتحقق منها؟ فقولُ القرآن ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾، ثم استشهادُه بالبروج بقوله ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ثم قولُ علماء الفَلَك أن عدد البروج اثنا عشر.. كل ذلك يدل على أن كل ما حصل إنما حصل بتصرف رباني.

والآية التالية تقول ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾.. والواقع أنه قد جاء في الدنيا آلاف وآلاف ممن كان كل واحد منهم شاهدًا.. بل كل نبي كان شاهدا، فهل ثمة نبي لم يشهد على وجود البارئ تعالى بالأدلة والمعجزات والبينات؟ لا جرم أن كل نبي قد شهد على ذلك. إذًا، فكل نبي شاهد من حيث إنه كان شاهدًا حيًّا على وجود الله تعالى وقدرته وجلاله. كما أن كل نبي كان مشهودا، لأن الله تعالى يشهد على صدقه عند بعثته إلى الناس بالآيات والمعجزات. إذًا فالنبي يكون شاهدًا على الله تعالى، كما يكون مشهودا من قبله تعالى حيث يظهر تعالى صدقهَ بالآيات والمعجزات. وكذلك يكون الله تعالى شاهدا في زمن كل نبي، إذ يشهد على صدق نبيه، كما أن الله تعالى يكون مشهودا أيضا، إذ يُعرَف في الدنيا من خلال نبيه. وإلى هذه الحقيقة نفسها قد أشير في الإلهام الآتي للمسيح الموعود عليه السلام: "يا قمرُ، يا شمسُ، أنت مني وأنا منك" (التذكرة ص ٥٠٠).. أي أنت قمرٌ من حيث اقتباسك النورَ مني، وأنت شمس من حيث إشراقُ وجودي في العالم بواسطتك، وكذلك أنا شمس إذ لولا نصرتي لك لما نجحتَ في مقصدك في الدنيا، وأنا قمرٌ أيضا لأنك أنت الذي عرّفتني في الدنيا.

فكما أن الله تعالى يكون شمسًا من جهة وقمرًا من أخرى، كذلك يكون النبي شمسًا من جهة وقمرًا من أخرى، والحال نفسه للشاهد والمشهود، فكل نبي شاهدٌ واللهُ مشهودٌ من جهة، ومن جهة أخرى يكون الله شاهدًا ويكون النبي مشهودا، ولكن هذا لا يعني أننا لا نستطيع أن نعتبر أيَّ شيء آخر شاهدًا أو مشهودًا، ففي الحديث المذكور آنفًا قد سمّى النبي ﷺ يوم الجمعة شاهدًا ويوم عرفة مشهودا من جهة، ومن ناحية أخرى اعتبر يوم القيامة أيضا مشهودا. فالحق أن كل هذه الأحاديث

صحيحة في مكانها، ونحن لا ننكر أن يوم القيامة أيضا يوم موعود، كما نقرّ بصحة كل ما ورد في الأحاديث عن شاهد ومشهود، ولكن السؤال هنا: ما هو المعنى المناسب الملائم هنا لليوم الموعود: أهو بمعنى زمن المسيح الموعود، أو يوم القيامة. لقد بين الله تعالى بقوله ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ أنه سيجعل القمر يتسق بعد ليلة روحانية مظلمة تخيّم على العالم كله؛ وقد أثبتْنا أن اتساق القمر يعني لغةً دخولُه في الليلة الثالثة عشرة.. أي أن الله تعالى قد قدّم في السورة السابقة شهادة القمر وهو في الليلة الثالثة عشرة؛ ثم أعاد هنا الموضوع نفسه، ولكن بأسلوب آخر، حيث ذكر أولاً اثني عشر برجًا، ثم اليوم الموعود، مما يدل بوضوح أن المراد من اليوم الموعود هنا وقت بعثة المسيح الموعود المقدر ظهوره بعد الاثني عشر برجًا. واليومُ يعني الوقت، فالمراد من اليوم الموعود هو وقت ظهور هذا الشخص الموعود. كذلك اليوم يعني النهار المعروف أيضا، وعليه فالمعنى أننا وإن كنا سمينا ذلك الوقت ليلاً إلا أن ذلك الوقت يكون مضيئا مثل النهار، فلذلك نسمّيه اليوم الموعود، إذ يظهر فيه نور الله وجلاله.

وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٤﴾

التفسير: أرى أن المراد من "الشاهد" هنا ما قد سبق أن بيّنه الله تعالى في قوله في سورة هود: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾(الآية:١٨).. أي كيف يمكن أن يكون كذابًا مَن كان قائمًا على حجة بينة من ربه، وسيأتي من عند الله شاهدٌ يشهد على صدقه ويكون تابعًا له، وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى الذي كان إِمَامًا وَرَحْمَةً للناس، ويؤمن به أتباعُ موسى الصادقون أيضا؟ فهنا أنبأ الله تعالى في قوله ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ عن بعثة المسيح الموعود، فالشاهد هو المسيح الموعود عليه السلام، والمشهود هو الرسول ﷺ. وهذا هو المراد من الآية قيد التفسير أيضًا، حيث قال الله تعالى إننا نقدِّم كشهادةٍ ذلك الشاهدَ المذكور في مكان آخر من القرآن،

كما نقدم كشهادةٍ المشهودَ أيضًا أي محمدًا رسول الله ﷺ... فالمراد من الشاهد هنا ذلك الشخص الموعود الذي يأتي في الزمن الأخير حين ينمحي صدق رسول الله ﷺ من القلوب، فيشهد أمام الناس على صدقه ﷺ، كما يكشف عليهم صدق القرآن الكريم.

قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٥﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٦﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٧﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

الأُخْدود: الحُفرةُ المستطيلةُ في الأرض، جمعُه أخاديدُ. (الأقرب)

التفسير: أي هلك أو سيهلك أصحاب الخنادق المليئة بالنار ذات الوقود.. وكأنه تعالى بين أن سبب هلاكهم ليس حفر الخنادق وإنما إشعال النار فيها لتعذيب الناس.

ثمة قولان للمفسرين في تفسير هذه الآيات، أولهما: أنها تتحدث عن مَلِكٍ في الحبشة كان يعذّب بعض الموحّدين. والقول الآخر أنها تتحدث عن دانيال وصاحبَيه الذين عذّبهم نبوخذنصّر. (روح المعاني، والطبري، وفتح البيان)

أستغرب كيف كتب المفسرون هذه الأقوال، مع أن هذه الآية تتحدث عن واقعة حقيقية وردت في التوراة في كتاب دانيال كالآتي:

"نَبُوخَذْنَصَّرُ الْمَلِكُ صَنَعَ تِمْثَالاً مِنْ ذَهَبٍ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا وَعَرْضُهُ سِتُّ أَذْرُعٍ، وَنَصَبَهُ فِي بُقْعَةِ دُورَا فِي وِلاَيَةِ بَابِلَ. ثُمَّ أَرْسَلَ نَبُوخَذْنَصَّرُ الْمَلِكُ لِيَجْمَعَ الْمَرَازِبَةَ وَالشِّحَنَ وَالْوُلاَةَ وَالْقُضَاةَ وَالْخَزَنَةَ وَالْفُقَهَاءَ وَالْمُفْتِينَ وَكُلَّ حُكَّامِ الْوِلاَيَاتِ، لِيَأْتُوا لِتَدْشِينِ التِّمْثَالِ الَّذِي نَصَبَهُ نَبُوخَذْنَصَّرُ الْمَلِكُ. حِينَئِذٍ اجْتَمَعَ الْمَرَازِبَةُ وَالشِّحَنُ وَالْوُلاَةُ وَالْقُضَاةُ وَالْخَزَنَةُ وَالْفُقَهَاءُ وَالْمُفْتُونَ وَكُلُّ حُكَّامِ الْوِلاَيَاتِ لِتَدْشِينِ التِّمْثَالِ الَّذِي نَصَبَهُ نَبُوخَذْنَصَّرُ الْمَلِكُ، وَوَقَفُوا أَمَامَ التِّمْثَالِ الَّذِي

نَصَبَهُ نَبُوخَذْنَصَّرُ. وَنَادَى مُنَادٍ بِشِدَّةٍ: «قَدْ أُمِرْتُمْ أَيُّهَا الشُّعُوبُ وَالأُمَمُ وَالأَلْسِنَةُ، عِنْدَمَا تَسْمَعُونَ صَوْتَ الْقَرْنِ وَالنَّايِ وَالْعُودِ وَالرَّبَابِ وَالسِّنْطِيرِ وَالْمِزْمَارِ وَكُلِّ أَنْوَاعِ الْعَزْفِ، أَنْ تَخِرُّوا وَتَسْجُدُوا لِتِمْثَالِ الذَّهَبِ الَّذِي نَصَبَهُ نَبُوخَذْنَصَّرُ الْمَلِكُ. وَمَنْ لاَ يَخِرُّ وَيَسْجُدُ، فَفِي تِلْكَ السَّاعَةِ يُلْقَى فِي وَسَطِ أَتُّونِ نَارٍ مُتَّقِدَةٍ». لأَجْلِ ذلِكَ وَقْتَمَا سَمِعَ كُلُّ الشُّعُوبِ صَوْتَ الْقَرْنِ وَالنَّايِ وَالْعُودِ وَالرَّبَابِ وَالسِّنْطِيرِ وَكُلِّ أَنْوَاعِ الْعَزْفِ، خَرَّ كُلُّ الشُّعُوبِ وَالأُمَمِ وَالأَلْسِنَةِ وَسَجَدُوا لِتِمْثَالِ الذَّهَبِ الَّذِي نَصَبَهُ نَبُوخَذْنَصَّرُ الْمَلِكُ. لأَجْلِ ذلِكَ تَقَدَّمَ حِينَئِذٍ رِجَالٌ كَلْدَانِيُّونَ وَاشْتَكَوْا عَلَى الْيَهُودِ، أَجَابُوا وَقَالُوا لِلْمَلِكِ نَبُوخَذْنَصَّرَ: «أَيُّهَا الْمَلِكُ، عِشْ إِلَى الأَبَدِ! أَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ قَدْ أَصْدَرْتَ أَمْرًا بِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَسْمَعُ صَوْتَ الْقَرْنِ وَالنَّايِ وَالْعُودِ وَالرَّبَابِ وَالسِّنْطِيرِ وَالْمِزْمَارِ وَكُلِّ أَنْوَاعِ الْعَزْفِ، يَخِرُّ وَيَسْجُدُ لِتِمْثَالِ الذَّهَبِ. وَمَنْ لاَ يَخِرُّ وَيَسْجُدُ فَإِنَّهُ يُلْقَى فِي وَسَطِ أَتُّونِ نَارٍ مُتَّقِدَةٍ. يُوجَدُ رِجَالٌ يَهُودٌ، الَّذِينَ وَكَّلْتَهُمْ عَلَى أَعْمَالِ وِلاَيَةِ بَابِلَ: شَدْرَخُ وَمِيشَخُ وَعَبْدَنَغُو. هؤُلاَءِ الرِّجَالُ لَمْ يَجْعَلُوا لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ اعْتِبَارًا. آلِهَتُكَ لاَ يَعْبُدُونَ، وَلِتِمْثَالِ الذَّهَبِ الَّذِي نَصَبْتَ لاَ يَسْجُدُونَ».

حِينَئِذٍ أَمَرَ نَبُوخَذْنَصَّرُ بِغَضَبٍ وَغَيْظٍ بِإِحْضَارِ شَدْرَخَ وَمِيشَخَ وَعَبْدَنَغُو. فَأَتَوْا بِهؤُلاَءِ الرِّجَالِ قُدَّامَ الْمَلِكِ. فَأَجَابَ نَبُوخَذْنَصَّرُ وَقَالَ لَهُمْ: «تَعَمُّدًا يَا شَدْرَخُ وَمِيشَخُ وَعَبْدَنَغُو لا تَعْبُدُونَ آلِهَتِي وَلا تَسْجُدُونَ لِتِمْثَالِ الذَّهَبِ الَّذِي نَصَبْتُ! فَإِنْ كُنْتُمُ الآنَ مُسْتَعِدِّينَ عِنْدَمَا تَسْمَعُونَ صَوْتَ الْقَرْنِ وَالنَّايِ وَالْعُودِ وَالرَّبَابِ وَالسِّنْطِيرِ وَالْمِزْمَارِ وَكُلَّ أَنْوَاعِ الْعَزْفِ إِلَى أَنْ تَخِرُّوا وَتَسْجُدُوا لِلتِّمْثَالِ الَّذِي عَمِلْتُهُ. وَإِنْ لَمْ تَسْجُدُوا فَفِي تِلْكَ السَّاعَةِ تُلْقَوْنَ فِي وَسَطِ أَتُّونِ النَّارِ الْمُتَّقِدَةِ. وَمَنْ هُوَ الإِلهُ الَّذِي يُنْقِذُكُمْ مِنْ يَدَيَّ؟». فَأَجَابَ شَدْرَخُ وَمِيشَخُ وَعَبْدَنَغُو وَقَالُوا لِلْمَلِكِ: «يَا نَبُوخَذْنَصَّرُ، لاَ يَلْزَمُنَا أَنْ نُجِيبَكَ عَنْ هذَا الأَمْرِ. هُوَذَا يُوجَدُ إِلهُنَا الَّذِي نَعْبُدُهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنَجِّيَنَا مِنْ أَتُّونِ النَّارِ الْمُتَّقِدَةِ، وَأَنْ يُنْقِذَنَا مِنْ يَدِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ. وَإِلاَّ فَلْيَكُنْ مَعْلُومًا لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ، أَنَّنَا لاَ نَعْبُدُ آلِهَتَكَ وَلاَ نَسْجُدُ لِتِمْثَالِ الذَّهَبِ الَّذِي نَصَبْتَهُ».

حينَئذ امْتَلأَ نَبُوخَذْنَصَّرُ غَيْظًا وَتَغَيَّرَ مَنْظَرُ وَجْهه عَلَى شَدْرَخَ وَميشَخَ وَعَبْدَنَغُوَ، فَأَجَابَ وَأَمَرَ بِأَنْ يَحْمُوا الأَتُّونَ سَبْعَةَ أَضْعَاف أَكْثَرَ ممَّا كَانَ مُعْتَادًا أَنْ يُحْمَى. وَأَمَرَ جَبَابِرَةَ الْقُوَّة في جَيْشه بِأَنْ يُوثقُوا شَدْرَخَ وَميشَخَ وَعَبْدَنَغُوَ وَيُلْقُوهُمْ في أَتُّون النَّار الْمُتَّقدَة. ثُمَّ أُوثقَ هؤُلاَء الرِّجَالُ في سَرَاويلهمْ وَأَقْمصَتهمْ وَأَرْديَتهمْ وَلبَاسهمْ وَأُلْقُوا في وَسَط أَتُّون النَّار الْمُتَّقدَة. وَمنْ حَيْثُ إنَّ كَلمَةَ الْمَلك شَديدَةٌ وَالأَتُّونَ قَدْ حَميَ جدًّا، قَتَلَ لَهيبُ النَّار الرِّجَالَ الَّذينَ رَفَعُوا شَدْرَخَ وَميشَخَ وَعَبْدَنَغُوَ. وَهؤُلاَء الثَّلاَثَةُ الرِّجَال، شَدْرَخُ وَميشَخُ وَعَبْدَنَغُوَ، سَقَطُوا مُوثَقينَ في وَسَط أَتُّون النَّار الْمُتَّقدَة.

حينَئذ تَحَيَّرَ نَبُوخَذْنَصَّرُ الْمَلكُ وَقَامَ مُسْرعًا فَأَجَابَ وَقَالَ لمُشيريه: «أَلَمْ نُلْقِ ثَلاَثَةَ رجَال مُوثَقينَ في وَسَط النَّار؟» فَأَجَابُوا وَقَالُوا للْمَلك: «صَحيحٌ أَيُّهَا الْمَلكُ». أَجَابَ وَقَالَ: «هَا أَنَا نَاظرٌ أَرْبَعَةَ رجَال مَحْلُولينَ يَتَمَشَّوْنَ في وَسَط النَّار وَمَا بهمْ ضَرَرٌ، وَمَنْظَرُ الرَّابع شَبيهٌ بابْن الآلهَة». ثُمَّ اقْتَرَبَ نَبُوخَذْنَصَّرُ إلَى بَاب أَتُّون النَّار الْمُتَّقدَة وَأَجَابَ، فَقَالَ: «يَا شَدْرَخُ وَميشَخُ وَعَبْدَنَغُو، يَا عَبيدَ الله الْعَليِّ، اخْرُجُوا وَتَعَالَوْا». فَخَرَجَ شَدْرَخُ وَميشَخُ وَعَبْدَنَغُو منْ وَسَط النَّار. فَاجْتَمَعَت الْمَرَازبَةُ وَالشِّحَنُ وَالْوُلاَةُ وَمُشيرُو الْمَلك وَرَأَوْا هؤُلاَء الرِّجَالَ الَّذينَ لَمْ تَكُنْ للنَّار قُوَّةٌ عَلَى أَجْسَامهمْ، وَشَعْرَةٌ منْ رُؤُوسهمْ لَمْ تَحْتَرقْ، وَسَرَاويلُهُمْ لَمْ تَتَغَيَّرْ، وَرَائحَةُ النَّار لَمْ تَأْت عَلَيْهمْ. فَأَجَابَ نَبُوخَذْنَصَّرُ وَقَالَ: «تَبَارَكَ إلهُ شَدْرَخَ وَميشَخَ وَعَبْدَنَغُوَ، الَّذي أَرْسَلَ مَلاَكَهُ وَأَنْقَذَ عَبيدَهُ الَّذينَ اتَّكَلُوا عَلَيْه وَغَيَّرُوا كَلمَةَ الْمَلك وَأَسْلَمُوا أَجْسَادَهُمْ لكَيْلاَ يَعْبُدُوا أَوْ يَسْجُدُوا لإله غَيْر إلههمْ. فَمنِّي قَدْ صَدَرَ أَمْرٌ بأَنَّ كُلَّ شَعْب وَأُمَّة وَلسَان يَتَكَلَّمُونَ بالسُّوء عَلَى إله شَدْرَخَ وَميشَخَ وَعَبْدَنَغُوَ، فَإنَّهُمْ يُصَيَّرُونَ إرْبًا إرْبًا، وَتُجْعَلُ بُيُوتُهُمْ مَزْبَلَةً، إذْ لَيْسَ إلهٌ آخَرُ يَسْتَطيعُ أَنْ يُنَجِّيَ هكَذَا». حينَئذٍ قَدَّمَ الْمَلكُ شَدْرَخَ وَميشَخَ وَعَبْدَنَغُوَ في وِلاَيَة بَابلَ." (دَانيال ٣: ١-٣٠).

لقد أخطأ المفسرون إذ قالوا إن دانيال كان من بين هؤلاء المعذَّبين، وقد وقعوا في هذا الخطأ لعدم توافُر نسخ التوراة في وقتهم بكثرة، فظنوا أن دانيال كان من بين هؤلاء المعذَّبين. على أية حال، هذه واقعة من الماضي وقد ذُكر فيها الأتون

وإشعال النار وإلقاء ثلاثة أشخاص فيها، وأن الملك وأصحابه كانوا يروْن هذا المشهد. ولا بأس بهذه الواقعة إلى هذا الحدّ، ولكن تفاصيلها لا تنطبق على ما ذكره القرآن الكريم هنا، لأنه لم يقلْ أنهم خرجوا من النار أحياءً. قد تكون هذه الجزئية قد أُضيفتْ إلى هذه الواقعة إذ توجد في التوراة مبالغات كثيرة. صحيح أن هؤلاء قد أُحرقوا في الأتون لإيمانهم بالله الأحد، وهذا يحدث في كل عصر، ففي زمن كل نبي يقوم أعداءُ الدين بتعذيب المؤمنين بالله بطرق شتى، ولكني على يقين أن هذا الحادث لا علاقة له بهذه الآيات؛ لأنها بدأت بقوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾، فلزم أن تكون هذه الشهادة متعلقة بحادث يقع في المستقبل، لأن المعروف في القرآن الكريم أنه يقدّم الشهادة على أمر يقع في المستقبل، فإنك لن تجد الله تعالى يقول في القرآن مثلاً إني أستشهد بالشمس والقمر على أني بَعثتُ في الماضي آدم أو نوحًا وإبراهيم وموسى. إنما تكون شهادته على أمور غيبية ستقع في المستقبل. وحيث إننا لا نجد في القرآن أي قَسَمٍ قُدِّم كشهادة على أحداث الماضي، فإن تطبيق حادث التوراة على قوله تعالى ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ خلاف لأسلوب القرآن ومناف للعقل؛ إذ لا داعي أن يحلف الله من أجل حادث تاريخي وقع في الماضي. إني لا أنكر أن واقعة كهذه قد تكون قد وقعت في الماضي، وإنما أقول لقد أنبأ الله تعالى هنا أن حادثا مماثلا سيقع في المستقبل، وهكذا يتضمن قوله تعالى ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ نبوءة أخرى عن الزمن الأخير، حيث أنبأ الله تعالى من قبل عن ظهور المسيح الموعود الذي سيجعل الإسلام غالبا ثانية، وقد دلّل ﷻ على ذلك بأنه لم يزل في الماضي يبعث المجددين لإحياء الإسلام دائما، فلا بد أن يفعل ذلك في المستقبل، خصوصًا أنه قد أنبأ عن بعثة موعود في الزمن الأخير، أما الآن فقد بيّن تعالى هنا أن اليوم الموعود لغلبة الإسلام لن يأتي بسهولة، بل لا بد أن يقدِّم المؤمنون من أجله تضحيات كبرى. كان الله تعالى قد ركّز كثيرا على اليوم الموعود، وكان من الممكن أن تظن جماعة ذلك المأمور المبعوث في الزمن الأخير أن هذا اليوم الموعود سيأتي تلقائيا

بدون تضحيات وجهود، فصحّح الله أفكارهم بقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾، وبيّن لهم أن هذا اليوم الموعود سيأتي يوما، ولكن لا بد لكم من أن تضحّوا بأنفسكم في سبيله، وتتعرضوا لفظائع مروعة على يد المعارضين فترة من الزمن.

لقد نبّه المسيح الموعود عليه السلام جماعته مرارًا إلى أن رقي الإسلام والأحمدية يتطلب منّا موتًا، فإذا كنّا نظنّ أننا سنحقق أهدافنا دون تقديم تضحيات كالتي قدمها الصحابة أو التي قدّمها أتباع الأنبياء السابقين، فليس هناك مَن هو أشدّ منّا حمقًا وسذاجة. إن ازدهار الإسلام والأحمدية منوط بتضحياتنا، وهذا هو الموت الذي فيه الحياة الحقيقية. يقول عليه السلام وهو ينبئ عن غلبة الإسلام والأحمدية:

"سوف ينتصر الحقّ وسوف يرى الإسلام أيام النضارة والنور ثانية كما كان في الماضي، وسوف تطلع هذه الشمس على ذروتها ثانية كما طلعت من قبل؛ ولكنها لن تطلع الآن، بل لا بد أن تمنعها السماء من الطلوع ما لم تَدْمَ قلوبنا من شدة الجهد والتعب وما لم نتخلَّ عن كل أنواع الراحة من أجل طلوعها، وما لم نقبل كل أنواع الذلة لإعزاز الإسلام. إن إحياء الإسلام يتطلب منّا فدية! فما هي تلك الفدية؟ إنها موتنا في هذا السبيل. وبهذا الموت قد أُنيطتْ حياة الإسلام وحياة المسلمين، وعليه يتوقف تجلِّي الإله الحيّ وظهورُه". (فتح الإسلام، الخزائن الروحانية، المجلد ٣ ص ١٠-١١)

وكذلك يقول عليه السلام:

لا تَفْتتنوا بملذّات الدنيا، فإنها تُبعدكم عن الله تعالى، بل اختاروا حياةَ المرارة لوجه الله، فإنَ الألم الذي فيه رضا الله خيرٌ من اللذة التي تجلب غضبه، وإن الهزيمة التي تُرضي الله أفضلُ من الانتصار الذي يوجب غضبه، فأَقلِعوا عن المحبة التي تُدنيكم من غضبه. لو أقبلتم على الله تعالى بقلوب صافية لنصَركم في كل موطن، ولم يقدر العدوّ على النَّيلِ منكم. ولكنكم لن تحظوا برضا الله تعالى ما لم تتخلّوا عن إراداتكم وملذّاتكم وعزّتكم وأموالكم وأنفسكم، وما لم تتجشّموا في سبيله

تلك المرارةَ التي تشبه الموت. أما إذا كابدتم المرارة في سبيله تعالى لكنتم كالطفل الحبيب في حضن الله، ولورثتم الصدّيقين الذين خلوا من قبلكم."

وقال عليه السلام أيضا: "لا تظنّوا أن الله تعالى سوف يضيعكم، فأنتم بَذْرةٌ بَذَرَها الله تعالى في الأرض بيده. يقول الله تعالى: إن هذه البَذْرة سوف تنمو وتزدهر وتتفرّع في كل طرف، ولسوف تصبح دَوحة عظيمة. فطوبى لمن يؤمن بكلام الله تعالى ولا يخشى الابتلاءاتِ العارضة، إذ لا بُدَّ من الابتلاءات أيضا لكي يختبر الله مَن هو صادق منكم في البيعة ومن هو كاذب. ومن زلّت قدمُه نتيجة ابتلاء فلن يضر الله شيئا، وسوف تُوصله شقاوتُه إلى الجحيم، ولو أنه لم يُولَد لَكان خيرًا لـــه. ولكن الذين يصبرون إلى النهاية رغمَ زلازلِ المصائب التي تأتي عليهم وعواصِفِ الابتلاءات التي تَهُبُّ عليهم، وسخريةِ الأقوام منهم، وتعامُلِ الدنيا معهم بمنتهى الكراهية؛ فأولئك الذين سيفوزون في آخرِ الأمر، وتُفتَح عليهم أبوابُ البركاتِ على مصارعها. لقد قال الله تعالى مخاطبًا إيَّايَ أنْ أُخْبِرَ جماعتي بأن الذين يؤمنون إيمانًا لا تشوبُه شائبةٌ من الدنيا، ولا يكون ملوَّثًا بالنفاق أو الجُبن ولا يكون خاليًا من الطاعة، فأولئك هم المَرْضِيُّون عند الله تعالى، ويقول الله تعالى إنهم هم الذين لهم قدمُ صِدْق." (الوصية، الخزائن الروحانية المجلد ٢٠ ص ٣٠٧-٣٠٩)

كما أزال المسيح الموعود عليه السلام سوءَ الفهمِ لدى أولئك الذين يظنون أن الإسلام والأحمدية سيزدهران تلقائيا، وأن لا حاجة بهم إلى تضحية أو جهد! فقال عليه السلام:

"اعلموا أنه ليس عندنا أيُّ رُقْيةٍ نجعل بها أحدًا من الأبدال دفعة واحدة. لقد أجمعَ الأنبياء كلهم على أنه لا بد من الابتلاء للترقي في الدرجات العلى. لا يمكن لأحد أن يكون صادقًا في إيمانه إلا إذا مرَّ بالاختبار والامتحان. ومِن سنة الله أن مع العسر يسرا. اعلموا أن الذي لا يكون مستعدًّا لمعاناة المصائب والشدائد في سبيل الله تعالى فإنه سيُفْصَل من الجماعة. فكِّروا في الصحابة كيف تحملوا أنواع المصائب وتعرّضوا لأنواع الأذى في سبيل الدين، و لم يذوقوا طعم الراحة ليلاً ولا نهارا. لقد رضوا بكل مصيبة في سبيل الله تعالى حتى ضحّوا بأرواحهم. اعلموا أنكم لن تحقّقوا شيئا ما لم تسعوا بإخلاص وصدق. كثير هم الذين يبايعون على أيدينا هنا،

ثم إذا رجعوا إلى بيوتهم وتعرضوا لأذى بسيط أو تهديد أو مقاطعة ارتدّوا فورًا. إن هؤلاء يبيعون إيمانهم. انظروا إلى الصحابة كيف أنهم قدَّموا رؤوسَهم لتُقطَع في سبيل الدين. كانوا مستعدّين على الدوام للتضحية بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله تعالى. لم يكترثوا لعداء عدو. لقد تحمّلوا كل أنواع الأذى في سبيل الله، وظلوا مستعدين في كل حين ليكونوا هدفًا لأي نوع من الآلام، وكانوا مصممين على ذلك في قلوبهم. إنما المؤمن من لا يتزعزع، وإنْ عاداه العالم كله، وإنْ لدغتْه الأفاعي والعقارب من كل جهة، وإن سقطتْ عليه الصواعق من كل طرف، وإنْ تعرّضَ للتعذيب من كل مكان." (جريدة بدر، ١٧تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ص ٨-٩)

هذه هي روح التضحية التي يجب أن تتحلى بها جماعتنا الإسلامية الأحمدية، وهذه هي الروح التي تحيا بها الأمم. لقد نبه الله تعالى هنا منكري المسيح الموعود عليه السلام قائلا: إنكم ما زلتم تصدّقون المجددين الذين ظهروا لاثني عشر قرنا، فما لكم تنكرون الموعود الذي ظهر عند القرن الثالث عشر والذي لم نــزَلْ نؤكد لكم مجيئه. كما نبّه المؤمنين به عليه السلام أن عليهم أن يتذكروا دومًا أنه لا بُدَّ لهم من أن يدخلوا النيران الملتهبة، وعندها سيطلع يوم غلبة الإسلام ومجده ثانية. باختصار ترسم لنا هذه الآيات شدّة المعارضة التي ستتعرض لها الأحمدية في المستقبل.

أما قوله تعالى ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ فيظهر منه أن الأعداء سيتفرجون على تعذيب المؤمنين فرحين. التعذيب نوعان: تعذيب تُعقِبه مشاعر الرحمة في قلب المعذِّب، ومثاله إعدام المجرم شنقًا، إذ يتأسف على موته القاضي والشرطة أيضا، ولكن هناك تعذيب آخر يشعُر المعذِّب إثره بالفرحة والتفاخر بأنه قد أحسن صنعًا؛ فالله تعالى ينبئ هنا أن هؤلاء المعذِّبين سيفرحون بتعذيب المؤمنين، وكأنهم يقومون بمسيرات ومظاهرات احتفالاً بفعلتهم هذه. ومثاله في جماعتنا استشهاد الصاحبزادة عبد اللطيف الشهيد رضي الله عنه، إذ لم يرحمه أحد لما استُشهد رجمًا. لقد اشترك في عملية رجمه الملِكُ وحاشيتُه كلهم، يحرض بعضهم بعضًا على رجمه. وبتعبير آخر إنهم كانوا يجتمعون لتعذيبه فرحين كأنهم في عرس.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾. والشهود جمعُ شاهد، يقال: شهِد يشهَد شهودًا أي حَضَر واطَّلع عليه؛ فالمفهوم الأول لهذه الآية أنهم يعذّبون المؤمنين وهم يعلمون أنهم بريئون؛ والمفهوم الثاني أنهم يحضُرون وقت تعذيبهم ويتفرجون عليهم ولا تأخذهم بهم رحمةٌ.

علمًا أن قول الله تعالى ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ يوضح أمرين: أولهما أنهم سيجمعون الناس ويقيمون احتفالاً ليعذبوا المؤمنين أمام الجميع، وثانيهما أنهم سيعذّبونهم على التوالي، لأن القعود -أي العكوف على الشيء- يعني مواصلة العمل بلا انقطاع. وفي اللغة الأردية أيضا يقال: أنت جلستَ على هذا الأمر.. أي واصلْتَه وما تركتَه. فيقول الله تعالى أنهم يعارضون المؤمنين متعمدين مدركين أنهم يكذبون ويخدعون، وأن هذه المعارضة ستستمر لزمن طويل، وتقع أحداث تعذيب المؤمنين مرة بعد أخرى.

وبالنظر إلى تصرفات مناهضي الأحمدية نجد وكأن هذه الآيات قد رسمت حالهم؛ فإنهم يعلمون جيدًا أن الحق كما تقوله الأحمدية، ومع ذلك يرون معارضة هذا الحق لزامًا، لأنه قيل مِن قِبل الأحمدية. فمثلاً لو قلنا اليوم إن المقام السامي الذي تبوءه الرسول ﷺ قد تبوَّءه بجهده وسعيه، أقاموا ضجة في العالم أن الأحمديين يسيئون إلى الرسول ﷺ، مع أنه ليس في ذلك أي إساءة، بل فيه تعظيم وتوقير له ﷺ. كنت أظن من قبل أن هؤلاء القوم لم يقرءوا كتبنا، ويثيرون الضجة ضدنا بما سمعوه من الآخرين، ولكن أرسل إليّ أحد الإخوة قبل بضعة أيام قصاصة جريدة اقتبس فيها صاحب الجريدة عبارةً من خطبتي، ثم علّق عليها قائلاً: انظروا كيف يسيء الأحمديون إلى رسول الله ﷺ إذ يقولون إن الرسول ﷺ قد نال هذا المقام بقوة عمله، ولم يكنْ هذا مجردَ هبة ربانية. وهذا يعني أن صاحب الجريدة كان يفهم حقيقة الأمر، ولكنه رأى معارضتنا ضرورية ليثور الناس ضدنا ويشتعلوا غضبًا. ومن أجل ذلك يقول الله تعالى هنا: ﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾.. أي أنهم شاهدون على ما يأتونه من تصرفات خاطئة متعمدة. إنهم

سيظلمون المؤمنين وهم يعلمون أنهم يظلمون، وسيكذبون ويخدعون وهم يعلمون أنهم يفترون ويخدعون، ومع ذلك لن يرتدعوا عن المعارضة.

وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

وما نقَموا: نقَمَ منه كذا: أنكرَه عليه، وعابَه وكرِهه أشدَّ الكراهة لسُوءِ فعله. ونقَم منه: عاقَبَه. (الأقرب)

التفسير: أي أن هؤلاء المعذِّبين لا ينقِمون مِن هؤلاء المضطهَدين لأن أمرًا ساءهم منهم، إذ لا يستطيعون أن يرموهم بعيب حقيقي، إنما "جريمتهم" أنهم يؤمنون بالله تعالى. لا شك أن هؤلاء المعذِّبين أيضًا يكونون مؤمنين بالله تعالى، ولكنهم يؤمنون بإله ميّت، لا بالله العزيز الحميد.. الإله الحي القادر كما سيؤمن أتباع هذا الموعود. وهذا ما سيدفعهم لمعارضتهم وإيذائهم واتهامهم أنهم قد اختلقوا دينا جديدا. هؤلاء يَعرِضون على الناس إلهًا حميدًا، بينما ينسب أولئك إلى الله تعالى أنواعَ النقائص كاعتقادهم أن عيسى عليه السلام حيٌّ في السماء، أو أن الله جعل النبي ﷺ أفضل الرسل دونما سبب، إذ كان من الممكن أن يسبقه غيره لو كان الأمر يتوقف على الأعمال. فالحق أن كل عقيدة يطعنون بسببها في جماعتنا تؤكّد حمد الله وثناءه، ولكن كل عقيدة من عقائدهم هذه تسيء إلى الله تعالى. ومن أجل ذلك لم يقل الله تعالى هنا "إلا أن يؤمنوا"، بل قال ﴿إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾... أي أن كلا الفريقين سيؤمن بالله، ولكن الفارق أن أولئك القوم يؤمنون بإلهٍ غيرِ

عزيز ولا حميد، أما هؤلاء فيؤمنون بالله العزيز الحميد؛ وهذا الاختلاف هو أصل كل العداء.

ثم يقول الله تعالى ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.. أي أن هؤلاء المضطهِدين لن ينتبهوا إلى أن هؤلاء المظلومين يؤمنون بالله الذي هو مالِكُ السماوات والأرض ويسعوْن لإرساء عظمته وحمده تعالى، فلن يسكت على اضطهادهم. إن أذلّ إنسان في الدنيا أيضا يحترم مَن يُكرِمه، فكيف يمكن أن ينجح العدو في تدمير قوم يسعون لتوطيد عظمة مالك السماوات والأرض وحمده؟ ألا يفكّرون أن مالك السماء والأرض سيثور غيرةً برؤية ظلمهم، فيسحقهم برحى غضبه؟

ثم يقول الله تعالى ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.. أي أنهم يضطهدون المؤمنين عمدًا مغرورين بأن الجماهير معهم، فلا يقدر هؤلاء على أن يضروهم شيئًا. ولكن هؤلاء المغرورين لا يدرون أننا أيضا نراقب كل شيء ونسجّله. إذا كان هؤلاء قد غرّهم أن أغلبية الجماهير معهم يحترمونهم ويستحسنون فظائعهم، فكيف يظنون أني سأظلّ صامتًا على اضطهادهم لقوم يسعوْن لإقامة عظمتي وحمدي في الأرض؟ كلا، سأنـــزل لنصرتهم حتمًا، وأسحق هؤلاء الظالمين بغضبي.

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١١

شرح الكلمات:

فتَنوا: فتَن الشيءَ: أحرقَه. (الأقرب)

التفسير: الكافرون يلقون المؤمنين والمؤمنات في نار محرقة أعدّوها لهم، فلذلك يخبر الله هنا أن الذين يعذّبون المؤمنين والمؤمنات فلهم عذابُ جهنم ولهم عذاب الحريق. ويراد بالنار هنا النار المادية والمعنوية كلتاهما، إذ يؤذون المؤمنين جسديًا، كما يؤذونهم نفسيًا برميهم بشتى التهم التي تحرق قلوبهم، فلا يدرون ماذا يفعلون

تجاهها. فالله تعالى يقول: يجب ألا يظن الذين يحرقون المؤمنين والمؤمنات جسديًا ويحرقون قلوبهم بإلصاق أنواع التهم والأباطيل أنهم سينجون من بطشنا. والجهود التي تُبذَل لإثارة الفتن ضدّ جماعتنا في هذه الأيام مثال واضح على صدق هذه الآية، فالمسلمون غير الأحمديين يُدْمون قلوبنا باتهامهم أننا لا نؤمن - والعياذ بالله - بالرسول ﷺ (تحفه قاديانيت (أردو) مجلد أول ص ٦٧١). بينما يؤذينا اللاهوريون باتهامهم إيانا أننا نؤمن - والعياذ بالله - بنسخ الشهادة (جريدة "بيغام صلح" ٢٩ أغسطس/آب ١٩٧٣ ص ٣). مع أن كل ما نقوله إنما نقوله لتوطيد عزة محمد ﷺ وجلالته، ولا نقول أبدًا ما يسيء إليه ﷺ ويقلّل من مكانته.

إذًا، فالله تعالى يقول هنا ما دام هؤلاء يحرقون أجساد المؤمنين والمؤمنات أو قلوبهم أو بيوتهم، فسوف نلقيهم في العذاب، إلا من تاب منهم فنقبل توبته ونعفو عنه مهما كان ذنبه كبيرا. أما إذا لم يتوبوا فليعلموا أنهم كما أحرقوا قلوب المؤمنين وأجسادهم، كذلك سنعذبهم عذابين؛ مادي ومعنوي مقابلَ العذابين اللذين صبّوهما عليهم؛ وعذابُ جهنم إشارةٌ إلى العذاب المادي، وعذاب الحريق إشارةٌ إلى العذاب المعنوي، ويمكن العكس أيضا.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

الفوز: هو الظفَرُ بالخير؛ النجاةُ. (الأقرب)

التفسير: العمل الصالح يعني العمل بحسب مقتضى الحال. وهذا الأمر هام وضروري جدا بحيث مهما ركّزنا عليه فلا نفيه حقّه، إذ يكمن فيه نجاح المسلمين ورقيّهم. لو كان العمل بحسب مقتضى الحال فهو عمل صالح يقينا، وإذا لم نراعِ مقتضى الحال أصبح عملنا غير صالح. فمثلاً لم تكن الخمر محرّمة قبل الإسلام الذي

حرّمها حرمة قطعية (المائدة:٩١)؛ وعليه فالعمل الصالح لا يعني فقط عدم شُربِ الخمرَ، وإنما يعني أن ينتهي المرء عن شيء حين ينهى الله عنه؛ فإذا نهى الله عن الخمر مثلاً انتهى المرء عنها، وإذا لم ينهَ عنها فلا بأس إذا لم يكفّ عن تعاطيها. لذا فلا شك أن الإسلام يختلف عن الشرائع السابقة في قضايا كثيرة، إلا أن الخمر لم تكن محرمة فيها حرمة قطعية، فمن شرب الخمر من أصحاب هذه الشرائع فلم يعمل عملا غير صالح، بل كان عمله صالحا بحسب حالات ذلك الزمن.

باختصار، يقول الله تعالى عن الذين يؤمنون ويعملون الصالحات أن لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار. لقد ذكر الله تعالى من قبل أن للكفار نوعين من العذاب، ويخبر الآن أن للمؤمنين نوعين من النعم: جنات تظلّهم بظلّها من فوق، وأنهار جارية من تحت هذه الجنات. وكأنهم ينالون البرد من فوقهم ومن تحتهم، ويكونون في راحة في الظاهر وفي الباطن، ويكون لهم العزة عند الناس وعند الله أيضا.

ولقوله تعالى ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ مفهومان: أولهما أن ظلال هذه البساتين تكون كثيفة لا تتخللها الشمس لتقارُبِ أشجارها والتفاف أغصانها، ولن تصل الشمس إلى أرضها، كما أن الأنهار التي تجري من تحتها ستكون أيضا تحت الظلال لكونها مكثفة متصلة لا تتخللها الشمس؛ وكأن هذا إشارة إلى كمال رحمة الله بهم.

وثانيهما: أن قوله تعالى ﴿لَهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أن هذه البساتين مع أنهارها ستكون ملكا لهم. فمثلا هناك قنوات عندنا في منطقة "سرجودا" و"لويل بور"، ولكنها ليست ملكًا لأصحاب تلك الأراضي، بل هي مِلْكٌ للدولة، ولكن الله تعالى يخبر هنا أن تلك البساتين مع أنهارها تكون مِلْكًا لأهل الجنة. وهذا ما يدل عليه أيضًا قوله تعالى ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾.. لأن الأنهار ستكون ضمن الجنات.. أي أن الذي يملك هذه البساتين يملك ما فيها من أنهار ونعم أخرى أيضا.

كما أن قوله تعالى ﴿مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ إشارة إلى سعة الجنات، لأن القناة أو النهر لا تجري في ثلاثة أو أربعة فدادين، بل في مساحة شاسعة تبلغ خمسين أو ستين بل ألفين من الأميال.

باختصار، تشير هذه الآيات أولا إلى أن أهل الجنة سينعمون بالنعم الظاهرة والنعم المعنوية. ثانيا: أن كل ما يوجد في هذه الجنات من أسباب رقيهم ستكون تحت سيطرتهم وتصرفهم. وثالثا: أن هذه الأسباب تكون واسعة جدا.

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

بَطْش: بَطَشَ به بَطْشًا: أَخَذَه بالعنف؛ تناولَه بالشدّة عند الصولة؛ أَخَذَه أَخْذًا شديدا في كل شيء. (الأقرب)

التفسير: أي أن الكافرين يؤذون المؤمنين، ولكن بطش الله أيضًا شديدٌ جدا. وقد أوحى الله تعالى إلى المسيح الموعود عليه السلام أيضًا: "وإذا بطشتم بطشتم جبارين" (التذكرة ص ٦١١).. أي أنهم سيؤذون المؤمنين إيذاء شديدا، ولكن عليهم أن لا ينسوا أن الله شديد في بطشه.

إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٤﴾

التفسير: أي أن الله تعالى هو الذي يخلق الشيء أوّلاً ويعيد خَلْقَه. والمراد أن الله تعالى هو الذي يعذّبهم في الدنيا، ثم يعذبهم في الآخرة.

وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٥﴾

التفسير: أي أن الله تعالى كثير المغفرة وكثير المحبة. ولما كان الحديث هنا عن المسيحية التي يقول أهلها إن الله لا يغفر لأحد، ومع ذلك يقولون أنه تعالى يحبّ الإنسان، فذكر الله هنا صفتيه الغفور والودود معًا؛ وكأنه تعالى يقول: الغريب أنهم يزعمون أن الله لا يغفر للناس ذنوبهم، ثم يعلنون أن الله محبة، مع أن الغفور والودود صفتان متلازمتان؛ فمَن كان غفورًا فلا بدّ أن يكون ودودا، ومن كان ودودا فلا

بد أن يكون غفورا. إذن، فقد أبطل الله تعالى بذكرِ هاتين الصفتين الإلهيتين معًا عقيدة المسيحيين أن غفران الله لذنوب عباده منافٍ لعدله ﷻ.

ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٦﴾

التفسير: لقد أعلن الله تعالى هنا أنه ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾. لقد قام المسيحيون بدعاء في زمن مضى، وهم لا يزالون يردّدونه حتى اليوم لسوء فهمهم قائلين: "أَبَانَا الَّذي فِي السَّمَاوَاتِ، لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ. لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ، لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ" (متّى٦: ٩-١٠)، ورغم ترديدهم هذا الدعاء منذ تسعة عشر قرنا، إلا أن ملكوت الله لم ينـــزل من السماء إلى الأرض في زعمهم؛ ولذلك يقول الله تعالى أيها المسيحيون ما هذا الذي تفعلون؟ فإن الله لذو العرش المجيد، وقد علّمكم هذا الدعاء منذ تسعة عشر قرنا، وظللتم ترددونه منذ ذلك الوقت، ومع ذلك لم يستجب لدعائكم، ولم ينـــزل ملكوته على الأرض في زعمكم، فكيف يكون ذا العرش المجيد إذن؟ كلا، بل إذا قال أن يكون ملكوته على الأرض فلا يمكن أن يحول دون نزوله إليها أحد. وقد نـــزل ملكوته من السماء إلى الأرض فعلاً؛ مرّةً على يد المسيح عليه السلام، ثم على يد رسول الله ﷺ، والآن على يد المسيح الموعود عليه السلام. ولكن هؤلاء لا يزالون يدعون: إلهَنا، لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ عَلَى الأَرْضِ كما هو في السماء.

فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٧﴾

التفسير: أي أن الله تعالى إذا أرادَ شيئًا فَعَلَه حتمًا، ولكنكم، أيها المسيحيون، تظنون أنه تعالى أراد إنزال ملكوته من السماء إلى الأرض، ولكنه لم يستطع تنفيذ مشيئته بعد. مع أن الواقع أن المسيح عليه السلام جاء وعلى يده نـــزل ملكوت الله على الأرض، ثم جاء محمد رسول الله ﷺ وعلى يده نـــزل ملكوت الله على الأرض،

والآن قد نـــزل ملكوت الله من السماء إلى الأرض للمرة الثالثة، ولكنكم لا تزالون ترددون إلَهَنا لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ عَلَى الأَرْضِ كما هو في السماء.

هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٨﴾ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ﴿١٩﴾

التفسير: قوله تعالى ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ بَدَلٌ من ﴿الجُنُودِ﴾.. حيث ذكر الله تعالى الجنود أوّلاً، ثم ذكَر رؤساءهم فرعونَ وثمودَ، والمراد: قد بلغكم ما فعلنا بأعدائنا جنودِ فرعون وثمود إذ هو ليس خفيًّا على أحد، فلِم لا تعتبرون بهم؟ ولماذا تتمادون في المعارضة؟

بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٍ ﴿٢٠﴾

التفسير: أي أن قلوب هؤلاء الكافرين في حالة تكذيب، وكم مِن عبرة أمامهم، ولكنهم يأبوْن إلا المعارضة والإنكار، وإذا قسا قلب المرء بحيث يرى أن عليه أن يعارض كل شيء، فلا ينال الهدى، إذ يتيسر الهدى لمن فكّر وتدبّرَ، أما إذا لم يتدبر و لم يفكّر أصلاً، فأنَّى له الهدى؟

كان الخليفة الأول رضي الله عنه يحكي دائمًا أن مَثَل معارضي المسيح الموعود عليه السلام كمثل البهلوان الذي يري ألعابًا بهلوانية، فيصعد حينًا على خيزران طويل ويقف عليها، وحينًا يمشي على حبل، ويقول: هل رأيتم ما فعلتُ؟ فيحرّك أحد أصحابه رأسه: لا، لم تُرِنا شيئا، فيُري لعبة أخرى ثم يسأل: أرأيتم لعبتي؟ فيقول صاحبه: لا، لم نَرَ منك شيئا، وهكذا يستمر الحديث بينهم بدون نهاية، والحق أن لا علاج لمثل هذا العناد. وهذا ما يبيّنه الله تعالى في قوله ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾.. أي أن قلوبهم قد قست بحيث إنهم لا يتدبرون في أي آية يرونها مهما كثرت الآيات، وإنما هدفهم تكذيبها. فهؤلاء غرقَى في بحر التكذيب.

وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

محيط: أحاطَ بالأمر: أحدقَ به مِن جوانبه، وفي القرآن: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾.. أي لا يُعجِزه أحد، قُدْرتُه مشتملةٌ عليهم. (الأقرب)

التفسير: أي أن هؤلاء غارقون في السُخرية، فكلما جاءهم آيات صدق ما نقول قالوا لن نؤمن بها، ولكنهم يجهلون أن الله تعالى قد قدّر لهم عذابا شديدا لسوء أعمالهم.

المحيط يعني لفظًا المحدِق مِن كل جانب، وهو إشارة إلى عذاب الله، حيث يقول الله تعالى إنه محيط بهم من ورائهم. وإحاطته بهم إشارة إلى عذابه التام؛ إذ لو كان هناك مناص لهرب منه الإنسان، ولكنه لو كان محاطًا من كل جهة سُدّتْ عليه طرق الفرار كلها.

أما قوله تعالى ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ﴾ فإشارة إلى أنهم لن يشعروا بالعذاب إلا بعد أن يحل بهم، لأن الشيء الذي يأتي من ورائك يفاجئك. إذًا يخبر الله تعالى أن هذا العذاب سيأتيهم بغتة ويحيط بهم من كل جهة، فلن يجدوا منه مهربًا.

وقد أُوحيَ الى المسيح الموعود عليه السلام أيضًا مرارا: "إني مع الأفواج آتيك بغتة". (التذكرة ص ٢٤٢)

بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢٢﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٣﴾

شرح الكلمات:

لَوح: اللوحُ: كلُّ صحيفةٍ عريضةٍ خشَبًا أو عظَمًا، قيل: مأخوذ من أن المعاني تلوح فيه بالكتابة (الأقرب)، حيث يقال لاحَ يلوحُ أي ظهر.

التفسير: أي أن هؤلاء القوم أشدُّ عنادًا وعداء من المكذّبين السابقين، وإنا نخبرهم أن هذا الوحي قرآن مجيد، فلو ازدادوا تكذيبًا له ازددنا تصديقًا له. فكأن

الله تعالى يقول إن غيرته لن تكتفي بتدمير هؤلاء الأعداء فحسب، بل إنه تعالى سوف يُرسي مجد القرآن في الدنيا، ويجعل الأعناق تعنو له. فمهما تمادى هؤلاء القوم في عدائه، فإن الله تعالى قد أراد إرساء مجد القرآن في العالم لأنه قرآن ذو مجد.

أما قوله تعالى ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾، فكلمة محفوظ لها قراءتان: محفوظٍ أو محفوظٌ، والمعنى الأول أن القرآن موجود في لوح محفوظ، والمعنى الثاني أن القرآن المجيد في لوح ومحفوظٌ.

وقال أبو الفضل وابن خالويه: أن هذه الكلمة ليست لَوْح بل هي لُوح، ومعناها الهواء الذي فوق السماء السابعة. (فتح القدير للشوكاني، وتهذيب اللغة للأزهري)

وهذا باطل بالبداهة، فمن صعد فوق السماء السابعة ورأى الفضاء هنالك وسماه بهذا الاسم الخاص؟

قال الجوهري في "الصحاح" اللُوح هو الهواء بين السماء والأرض (فتح القدير، ولسان العرب).. أي أن معنى اللوح: الجو والفضاء. هذا المعنى قد ورد في المعاجم، وهو دليل على بطلان قول ابن خالويه وأبي الفضل.

وقد روي عن ابن عباس، أن لوح الذكر لوحٌ واحد فيه الذكر - يعني أن كل ما نـــزل من الله تعالى مِن ذكر لموجودٌ في ذلك اللوح الواحد- وإن ذلك اللوح مِن نور، وإنه مسيرة ثلاثمئة سنة. (فتح القدير)

وأخرج ابن جرير عن أنس قال: إن اللوح المحفوظ الذي ذكره الله في قوله ﴿بَلْ هُوَ قُرْءانٌ مَّجِيدٌ ۞ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ في جبهة إسرافيل. (فتح القدير)

وروى السيوطي عن ابن عباس قال: خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مئة عام، فقال للقلم: قبل أن يخلق: اكتُبْ علمي في خَلْقي، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة. (فتح القدير)

وقال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش. (ابن كثير)

الحق أن هذه الأقوال كلها إسرائيليات انتقم بها اليهود من المسلمين السذج.

وكما هو ظاهر من شرح الكلمات، فإن اللوح هو السطح العريض المكتوب عليه، خشبًا كان أو عظما، وهو مِن لاح يلوح.. أي ظهَر. وحيث إن صفحة الورق يمكن طيُّها، لكن المكتوب على الخشب أو العظم لا يمكن طيّه، فلذلك يسمى لوحًا. والظاهر أن الشيء الذي لا يطوى فيه ميزة وعيب في وقت؛ الميزة أن كل واحد سيقرؤه، فيشاع بين الناس جيدا، والعيب أنه عرضةٌ للمحو أو التلاعب لكونه مفتوحًا على الدوام، ولذلك زاد الله هنا كلمة ﴿محفوظ﴾ عند وصف القرآن الكريم، وقال إنه ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾.. أي أن من مزاياه أنه سيصل إلى أيدٍ كثيرة، وينتشر انتشارا كبيرا، ولكنه سيظل محفوظًا من تلاعب الناس، بمعنى أنه يتميز بميزة الكلام المكتوب على اللوح، ومع ذلك سيظل محفوظا من العيب الموجود في اللوح.